تأملات في الإسلام

للأستاذ عبد المنصف محمود عبد الفتاح
واعظ مركز شبين القناطر

(٤)

الوقاية من الأمراض المعدية :

إننا لو نظرنا فى ديننا نظرة الباحث المدقق ، وتأملنا فى تعاليمه السامية ، لعلمنا أنه دعا إلى كل ما توصى به رجالات الطب والحكمة ، ولوجدنا أن محمداً صلى الله عليه وسلم ابن الصحراء من أحذق الحكماء ، وأمهر الأطباء .. فبينما نراه يبذل غاية جهده فى سبيل تطهير العقائد من أدران الشرك ، وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والأباطيل ، نراه يسدى إلينا النصائح الغالية فى كل ما يترتب عليه سلامة الأبدان والأعضاء وإبعادها عن كل ما يضرها ، أو يوهن قوتها ويذهب بنضارتها .. روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ؛ وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » .

العدوى : هى انتقال المرض من جسم مريض به إلى جسم سليم ، وهذا الانتقال يكون بواسطة جراثيم تسمى ميكروبات . وهى كائنات حية صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة ، ولكل مرض معد ميكروب خاص به ، متى انتقل إلى الجسم السليم وكان قابلا له ، تكاثر فيه ، وظهرت عوارض نفس المرض على ذلك الجسم بعد مدة محدودة تختلف باختلاف نوع المرض وقابلية الجسم .. وهذه الميكروبات لا تنتقل بنفسها إلى الصحيح فى كثير من الحالات المرضية ، بل لابد لها من وسيط تنقل لها : كاستعمال أدوات المريض أو الدنو منه فقد روى أبو داود فى سننه مرفوعا « إن من القرف التلف » . (والقرف مداناة الوباء ومقاربة المرض) وقال رسول الله ﷺ : « كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح أو رمحين » .. أو بواسطة

الحشرات وبعض الحيوانات الحاملة لها : كالبعوض والقمل والبراغيث والذباب والصراصير والفئران والقطط والكلاب ونحوها .. وقد تكون بواسطة الهواء والمناخ وبقعة الأرض والبرك والمستنقعات فى حالة التلوث بها وبذلك تظهر الحكمة من قوله صلى الله عليه وسلم : « وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » فهذه العبارة صريحة فى إثبات العدوى على أبلغ وجه ، فقد شبه النبي صلوات الله وسلامه عليه فتك مرض الجذام بصاحبه بفتك الأسد بفريسته ، وإذا كان الاقتراب من الأسد وهو الوحش الضارى مما يعرض حياة الإنسان الذى يقترب منه للخطر الداهم فكذلك الدنو من الشخص المصاب بمرض الجذام مما يسبب العدوى بنفس المرض . . وقد أيد النبي صلى الله عليه وسلم قوله بفعله حيث لم يسمح للمجذوم الذى وفد إليه قاصداً مبايعته أن يضع يده فى يده ، بل أمره بالرجوع من حيث أتى تعليما وإرشادا لأمته ، حتى لا نجازف فى مخالطة المرضى بالأمراض المعدية ، فقد روى أنه لما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد مبايعته ، كان بالوفد رجل مجذوم ، فأرسل إليه الرسول من يقول له : « إنا قد بايعناك فارجع » .

ولكن لما كانت العرب فى جاهليتها تعتقد : أن العدوى مؤثرة بذاتها بحيث أن المرض يحصل ولابد متى وجدت المخالطة ، أراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « لا عدوى » أن يحارب ما كان شائعا عندهم من أن ربط الأسباب بمسبباتها طبيعية لا تختلف . فأصلح عقائدهم فى هذه الناحية ، لأنه قد تنتقل الميكروبات إلى الجسم السليم ولكن لا يقبلها بل يدافعها ، بأن تلتهمها الكرات الدموية البيضاء مثلا ، ولقوتها فى ذلك الجسم تعدمها أولا بأول ، فلا تظهر عوارض المرض وينجو بتقدير العزيز العليم .. وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل مع مريض بالجذام ليبين للناس بهذا الصنيع : أن مخالطة المريض بمرض وبائى ، لا تكون دائما سببا لانتقال المرض ، فهناك سبب آخر حقيقى : هو إرادة الله عز وجل ، وما المخالطة إلا سبب عادى . روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال أعرابى يا رسول الله ، فما بال إبلى

تكون فى الرمل كأنها الظباء ، فيدخل بينها البعير الأجرب فيجربها قال : « فمن أعدى الأول ؟ » .

وإذن فليس المراد من قول النبي ﷺ : « لا عدوى » نفى العدوى بالكلية كما فهم ذلك الأعرابى قبل أن يوضح له الرسول جلية الأمر ، كيف وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يوردن ممرض على مصح (ممرض : ذو إبل مريضة بالجرب على مصح : ذى إبل صحاح) وفى الحديث نهى وتحذير لصاحب الإبل المريضة ، أن يوردها على الإبل الصحيحة ، خشية قرب العدوى إليها ثم كيف يجهل الرسول هذه الناحية الطبية الوقائية ، والحال أنه أسدى إلينا كثيرا من النصائح فى هذا الصدد فقال : « اتقوا المجذوم كما يتقى الأسد » وفى الصحيح عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز (أى عذاب) أرسل على طائفة من بنى اسرائيل وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه » والطاعون : مرض وبائى ، وهو ورم ردىء فتاك ، أشبه ما يكون بالخراج ، يصحبه إلتهاب شديد مؤلم ، وكثيرا ما يحدث فى الإبط ، وخلف الأذن ، وفى المواضع الرخوة من الجسم . . وروى البخارى عن عبد الله بن عباس : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروا أن الوباء قد وقع بأرض الشام (سرغ : قرية فى طريق الشام مما يلى الحجاز ، ويقال : إنها مدينة افتتحها أبو عبيدة) قال ابن عباس : فقال عمر : أدع لى المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا . فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه . وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم .

على هذا الوباء . فقال ارتفعوا عنى ثم قال : ادع لى الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عنى . ثم قال : ادع لى من كان هناك من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه (أى راجع بكم إلى المدينة صباحا والظهر: ظهر الراحلة) قال أبو عبيدة ابن الجراح : أفرارا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.. أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال: فجاء عبد الرحمن ابن عوف وكان متغيبا فى بعض حاجته فقال : إن عندى فى هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إذا سمعتم به (أى الوباء) بأرض فلا تقدموا عليه (لما فيه من التعرض للبلاء ، والقاء النفس فى المهلكة ، باستنشاق الهواء الفاسد العفن ، ومجاورة المرضى ، فلا يأمن القادم على نفسه من أن يصاب بمثل ما أصيبوا به، وذلك مخالف للشريعة ومناف للعقل) وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » (ثقة بالله وتوكلا عليه وصبرا على قضائه ، وخوفا من أن يكون الفار من الأرض الموبوءة قد حمل ميكروب المرض من حيث لا يشعر ، فينقله إلى الذين سيخالطهم فى الأماكن التى يريد التوجه اليها.. هذا بالإضافة الى أن اجهاده لبدنه بالسفر وكثرة التنقل ليس من صالحه كما قرره بعض الأطباء ، وانما ينبغى له عند وقوع الوباء فى الجهة التى يقيم فيها : أن يعمد الى تقليل الغذاء وان يجنح الى الراحة ويقلل من الحركة بحسب الامكان) قال : فحمد الله عمر ثم انصرف ».

والحديث يشير الى وقت حضانة المرض المعروف عند رجال الطب وفى هذا أكبر شاهد على الحجر الصحى الذى دعا اليه الإسلام عند حصول الوباء ، وقانا الله تعالى شر ذلك بمنه وكرمه ؟

عبد المنصف محمود عبد الفتاح
واعظ مركز شبين القناطر